فهرست المساهم

الإيضاح

في علل النحو

لأبي القاسم الزجاجي
المتوفى سنة ٣٣٧ هـ

تحقيق
الدكتور مازن المبارك

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م
دار النفائس ت ٢٥٨٢٣٨ ـ ص. ب ٦٣٤٧ ـ بيروت

كلمة الناشر

اللغة هي وجه الفكر الظاهر للملأ ، وهي خاصية من أبرز خصائص الامة ، ومرآة حضارتها ، وعامل مهم من عوامل وحدتها . وكل أمة تعتز بشخصيتها وتفخر بذاتيها ، تهتم بلغتها وتحافظ عليها محافظتها على ابنائها . فهي وان كانت لا تخرج في ظاهرها عن حروف وكلمات فان لها، في شكلها المنطوق او المكتوب، تأثيراً لا يعادله تأثير في نفوس ابنائها ، فكم من مقال او خطاب ... غيّر وجه التاريخ .

وللغة العربية بشكل خاص في أفئدة معظم الناطقين بها منزلة اسمى مما لغيرها عند ابنائها . فهي لغة القرآن الوحي الإلهي الذي كرم الله عز وجل به العربية ، والذي يفقد اعجازه بترجمته ، مما جعل لها مكانة رفيعة ايضاً عند اجناس متفرقة مسلمة غير عربية .

وقد سايرت اللغة العربية تقدم العرب العلمي والحضاري في الماضي ، وكانت لفترة من الزمن لغة العلوم في جميع انحاء العالم ، وكان علماؤها اهلا لحمل رسالتها، فوضعوا لها قواعد مكينة تحميها من عبث العابثين وتكفل تقدمها وتطورها ،

هذه اللغة تتعرض اليوم الى حملة مسعورة ان لم نقل «مؤامرة» غرضها القضاء عليها . فمن دعوة الى العامية ، الى دعوة للكتابة بالحروف اللاتينية ، الى المطالبة بالغاء الاعراب ... آراء مختلفة ظاهرها تطوير اللغة وباطنها القضاء عليها إذ هي أقوى رابطة توحد بين العرب في شتى أقطارهم وأهم عنصر من عناصر تكوين الأمة العربية .

إن انتشار اللغة وازدهارها مرتبط بوضع الأمة العلمي والحضاري، فعندما كان العرب في أوج حضارتهم فرضت لغتهم نفسها على عدد كبير من شعوب الأرض،

حتى على أولئك الذين احتلوا بلادهم عسكرياً ، وكانت عاملا من عوامل تقدم العرب . اما اليوم حين خيم الركود على الربوع العربية فقد وجد اعداء العرب منفذاً ، فحاولوا ربط تأخر العرب في الحقل العلمي بلغتهم ، في مخطط ذكي للقضاء على ذاتية الامة بعدما أخفقت طريقة الاحتلال العسكري في تأدية اغراضها .

نحن لا ننكر أهمية تطوير اللغة وفائدة وجود أسماء للمخترعات الحديثة والمصطلحات العلمية فيها ، ولا ننكر اثر ذلك في تقدم اللغة ، لكن عملية توفير هذه المصطلحات يجب ان تتم وفق اسس سليمة وفّرتها اللغة نفسها ، بحيث يؤدي ذلك الى إثراء اللغة وليس الى هدمها . إن ما يواجه العربية اليوم يمكن ان يواجه كل اللغات ، وربما كانت العربية اقدر من غيرها ، بما لها من ميزات، على مواجهة هذا الوضع وتخطيه . فالركود والجمود في عقول ابناء اللغة وليس في اللغة نفسها . وعلى هؤلاء ان يحركوا اللغة ولا يفسحوا المجال امام اعدائها ليطعنوا بها ويستغلوا حالة طارئة في تاريخها . وسيجد المهتمون بلغتهم في كتب الأقدمين منهلا صافيا ومعيناً لا ينضب في علوم اللغة كافة .

لقد كتب الاقدمون في كل علوم اللغة وابدعوا ، وستبقى كتبهم نافذة يطل منها ابناء هذا العصر على ماضي أمتهم الزاهر . كما ستبقى نقطة الانطلاق نحو إحياء اللغة وتطويرها وتجديد مناهجها .

وكتاب « الإيضاح في علل النحو » الذي نقدمه اليوم الى قراء العربية ودارسيها من أنفس ما كتب في موضوع العلل النحوية . وضعه إمام من أئمةِ اللغة والنحو في القرن الرابع هو أبو القاسم الزجاجي ، وحققه استاذ أسهم في تعليم العربية في عدد من الجامعات كما أسهم في إغناء المكتبة العربية بعدد من الكتب القيمة التي ألفها وحققها هو الدكتور مازن المبارك .

لذلك رأت « دار النفائس » ان تقدم هذا الكتاب القيّم بثوبه الجديد قياماً منها بواجب إحياء التراث وخدمة اللغة والله من وراء القصد .

أحمد راتب عرموش

مقدّمة

بقلم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

لعل لغة من اللغات لم تعرف عناية بنحوها كما عرفت ذلك لغتنا العربية ، فقد توفرت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة صفوة من العلماء ذوي النظر الثاقب والحس اللطيف على وَضع أصول هذا النحو وقواعده ، تدفعهم إلى ذلك حاجة المستعربين ، الذين دخلوا في الإسلام أفواجاً بل أمماً وشعوباً ، إلى تعلم لغة القرآن الكريم والوقوف على دلالات ألفاظه ودقائق معانيه .

ونهض علماء البصرة والكوفة بهذا العبء الجليل ، فانبروا يسجلون قراءات الذكر الحكيم ، ويجمعون الشعر الجاهلي والإسلامي ، ويقيّدون ملاحظاتهم اللغوية . وكان للبصريين الحظ الأوفر في البحوث النحوية ، ولم يلبث عيسى بن عمر الثقفي أن وضع فيها كتابين هما : الإكمال والجامع ، وخلفه الخليل ابن احمد الفراهيدي الأزدى، فتمّت لعلم النحو عنده آلاته وتكامل منهاجه، وإن كان لم يؤلف مصنّفاً غير ان تلميذه سيبويه الفارسي الّف على هدْي إملاءاته « الكتاب » فأحاط فيه بأصول النحو وقواعده كافّة .

وليس معنى ذلك ان نشاط المدرستين : الكوفية والبصرية ، خمد منذ هذا التاريخ ، بل لقد ظل مشتعلا متوهجاً ، ولكن لا في وَضْع الأصول والقواعد النحوية فقد وُضعت ، وإنما في بحث الفروع وتشعيبها وفَتْق العلل وتشقيقها . وتميزت كل مدرسة من المدرستين بخصائص اشتهرت بها ، فبينما عُنيت الكوفة لاستقراء والأخذ عن الأعراب والاهتمام بالشواذ اللغوية والنحوية، عُنيت البصرة

باطراد القواعد وتعميمها وتقديم القياس على السماع . وافادت المدرستان جميعاً من المنطق والفلسفة ، كما افادتا من كل الجو العلمي الذي عبق أريجه في علمي الفقه والكلام .

ولا نصل إلى نهاية القرن الثالث الهجري حتى تتقارب المدرستان المتنافستان ، بل حتى تندمجا في مدرسة جديدة ، هي مدرسة بغداد التي عُني حُذّاق النحاة فيها بانتخاب مزايا كل من المدرستين السالفتين ، وتوحيدها في مذهب جديد . وتدرج هذا المذهب في اطوار متعاقبة حتى اوفى على غايته .

ومن اهم ما يلاحظ على هذه المدارس جميعاً انها اخذت منذ الخليل بن احمد بمبدا العليّة ، فكل حكم نحوي يعلّل ، وكل ظاهرة نحوية كلية او جزئية لا بد لها من علّة عقلية، ولم يكتفوا بالعلل القريبة ، فقد ذهبوا يغوصون على كوامن العلل وخفيّاتها ودفائنها ، وكل نحوي بصري أو كوفي أو بغدادي يجرّب ملكاته الذهنية ، ويستنبط عللاً جديدة بحسب ما استُخْزِنَ عقله من قوة البرهان وحُشِيَ من عمق الدلالة .

والخليل هو أول من بسط القول في العلل النحوية بسطاً لفت بعض معاصريه (انظر ص ٦٥ ــ ٦٦ من هذا الكتاب) فتقدم إليه يسأله : أأخذ هذه العلل عن العرب أم اخترعها من لدن نفسه ؟ فأجاب بأن « العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله ، وإن لم يُنْقَلْ ذلك عنها » وقال: « إنه اعتلّ بما رأى أنه علة لما علّله . فإن سَنح لغيره علة لما علّله من النحو هي أليق مما ذكره بالمعلول ، فليأتِ بها » .

وبذلك انفتح باب العلل واسعاً أمام النحاة، وأخذ كل حاذق منهم يجلب اليه كل ما يستطيع من غرائب ونوادر ، لم يقفوا بها عند احكام الإعراب الظاهرة ، بل اداروها في واقع الكلام الإعرابي ولا واقعه ، وتجادلوا فيها طويلاً ،

مفضين في كثير من جدلهم إلى فروض وهمية ، حتى عقّدوا مصنّفاتهم النحوية تعقيداً شديداً ، وحتى غدا كثير من مباحثها شيئاً عسيراً .

وكنا نظن ظناً ان ابن جني اول من أفرد للعلل مؤلفات خاصة بها على نحو ما هو معروف في كتابه « الخصائص » حتى عثر السيد مازن المبارك على هذا الكتاب للزجاجي ، وقد اسماه « الإيضاح في علل النحو » وربما كانت هناك كتب اخرى تسبقه .

والكتاب طرفة نفيسة ، لما يحمل من دراسة تاريخية جامعة للعلل النحوية ، ولأن صنعة الزجاجي فيه ــ كصنعته في مختلف مؤلفاته ــ غاية في الوضوح والبيان ، فالضيم لا يدخل على اسلوبه ، ولا يدخل الاستغلاق على الفاظه ، إذ كان يطلب دائماً فيما يؤلفه ان يكون مفهوماً بحيث تقبل اوساط المثقفين على قراءته ، وبحيث لا يجدون فيه غموضاً ولا ما يشبه الغموض .

وقد جمع الزجاجي في هذا الكتاب العلل النحوية التي عُرفت حتى عصره ، سواء ما اتصل منها بالحدود واحكام الإعراب ، وما اتصل منها بالفروض والظنون الجدلية ، ونثر في تضاعيف ذلك بعض آرائه ، غير متحيّف لآراء من سبقوه من البصريين والكوفيين والبغداديين ، فهو يعرض آراءهم وعللهم في دقة وتحرّ شديد ، وقد يتدخل ــ ورائده الإنصاف ــ فيؤثر رأياً على راي ، او علة على علة، وقد يترك ذلك للقارىء ما دامت لم تستبن له الحجة الصحيحة التي يحكم على اساسها بين الطرفين المتعارضين .

وجهد نفسه اشد الجهد في معرفة تطور كثير من العلل ، فبدأ بأطراف منها منذ الخليل وسيبويه ، وسار بها مع الزمن لا يغادر علة لمعتلّ . وهو جانب مهم في الكتاب ، لأنه يرينا تطوّر العلل النحوية ، وكيف اخذت تنمو وتتعقد بمضيّ الوقت ، على ضوء ما ثقف النحاة من المنطق او من الفلسفة او من الفقه او من علم الكلام .

وإذا أخذنا نفحص هذه العلل التي نسّقها الزجاجي في كتابه وجدنا كثرتها تخرج عن الغاية من النحو ، وهي صحة النطق عند المتكلم ، إلى ما يمكن ان نسميه فلسفة العلل النحوية ، وهي فلسفة في جمهورها غير عملية ، وليس وراءها اي طائل نحوي ، كأن يتساءلوا عن سبب الإعراب في الاسم ، ولمَ كان يظهرَ في آخره ولا يظهر في وسطه او أوله ؟ او يتساءلوا عن عدم جزمه كالفعل ، ولمَ كان المثنى يرفع بالألف ولا يرفع بالواو ؟ ولمَ ضُمّ النصب فيه وفي الجمع السالم إلى الخفض ، ولم يضم إلى الرفع؟ ومن ذلك ان يتساءلوا عن الفعل والمصدر أيهما مأخوذ من صاحبه ومشتق منه ؟ وهل يستحق الفعل البناء او يستحق الإعراب ؟ ولمَ استحق الحرف البناء ؟ وهل الإعراب حركة او حرف ؟ وهل الإعراب اسبق أو الكلام ؟ ولمَ دخل التنوين في الأسماء ؟

ولكل سؤال من هذه الأسئلة جوابه ، وفي يد كل جواب علّته ودليله ، وتتقابل العلل والأدلة ، ويتجادل فيها النحاة جدالاً عنيفاً ، لا يفيد اللسان ولا اللغة اي فائدة ، إنما يفيد العقل من حيث هو ، وكأنما وجد فيها النحويون تمارين هندسية يشغلون بها اوقاتهم .

ولعل من الطريف ان الزجاجي تنبه إلى طبيعة هذه العلل ، وما فيها من تكلّف وتمحُّل ، فقسمها إلى تعليمية وقياسية وجدلية ؛ فالتعليمية هي العلل الأولى التي تفيدنا الأحكام الإعرابية كأن نقول : العلة في نصب لفظة « زيداً » في قولنا : إن زيداً مسافر ، هي مجيء إن قبلها . والقياسية هي العلل الثانية التي تأتي وراء العلل الأولى ، كأن يسأل سائل عن العلة في ان تنصب « إن » لفظة « زيداً » فيجيب النحاة بأنها هي واخواتها اشبهت الفعل المتعدي إلى مفعول به واحد ، فعملت عمله ، وتلاها منصوب كأنه مفعول به مقدّم ، ومرفوع كأنه فاعل مؤخّر . اما العلل الجدلية فعلل ثوالث تأتي وراء العلل الثواني ، كأن يسأل سائل بأي الأفعال تشبّه إن واخواتها أبالماضية ام المستقبلة ام الحادثة في الحال؟

أو يسأل سائل ثان : لِمَ لم تَجْرِ إن واخواتها على سياق الفعل فيتقدم معها مرفوعها على منصوبها كما يتقدم الفاعل على المفعول ؟ أو يسأل سائل ثالث : لماذا لم يجز في إن واخواتها ان يتقدم مرفوعها على منصوبها كما يحدث ذلك في الفعل ؟ فكل ما يعتلّ به النحاة جواباً عن هذه الأسئلة وما يماثلها يدخل في العلل الجدلية .

وواضح ان العلل التعليمية هي التي يحتاجها الناشئة في تعلم النحو ، اما العلل القياسية والجدلية او العلل الثواني والثوالث فتزيُّدٌ لا جدوى فيه إلا شغل العقل بالتأمل والنظر . وقد كانت هذه العلل المتكلّفة سبباً في ثورة ابن مضاء القرطبي على النحو العربي وما اصّله النحاة فيه وخاصة نحاة البصرة ، فذهب يدعو إلى إلغاء نظرية العامل التي جرّتْ إلى اكثر هذه العلل الفرضية ، كما دعا إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث ونَفْيها من كتب النحو ، إذ وجدها لا تفيد الناطقين شيئاً في نطقهم بالعربية الصحيحة سوى البعد بهم في التخيل والفَرْض والوهم .

ومع اننا نؤمن في عصرنا بان النحو ينبغي ان ييسّر على الناشئة ، وان تخرج منه هذه العلل المعقدة ، نرى من الواجب ان يُعْنى المتخصصون فيه بدراسته في صورته القديمة وكل ما داخلها من فلسفة العلة ، حتى يتبينوا تطوره وما شُفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة ، جعلت بعض المستشرقين يشيد بما تم لهذا العلم على ايدي اسلافنا من نضج واكتمال يحق للعرب ان يفخروا به .

ولعلي لا ابعد إذا قلت إن واجباً على من يحاولون تيسير نحونا ان يحيوا نصوصه القديمة حتى يضطلعوا بما يريدون من هذا التيسير عن علم وبصيرة ، ولذلك لم أتردّد في أن أدفع السيد مازن المبارك إلى تحقيق هذا الكتاب ونشره بين ايدي الباحثين في النحو ، وان يتخذه موضوعاً لرسالته التي حصل بها على درجة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة ، فعكف على تحقيقه وإحيائه مُنفقاً كلّ

ما يستطيع من قوة ووقت وعناء ونصب ، وقدّم له بدراسة قيمة ، بَحثَه فيها وصوّر منهجه واسلوبه ، وحلّل موادّه تحليلاً دقيقاً مما جعل ممتحنيه يقدّرون له جهده العلمي في إحيائه ، وما بذل فيه من مشقة وتذرّع به من دقة . وانا أهنئه على ما نال به من فوز وأذاع من فائدة ونفع .

والله نسأل ان يرزقنا السداد في القول والإخلاص في الفكر والعمل .

شوقي ضيف